

العلاقات السياسية بين المسلمين والبيزنطيين
في عهد الخليفة
« هارون الواثق »

إعداد

الدكتورة / سامية عامر

مدرسة تاريخ العصور الوسطى

العلاقات السياسية بين المسلمين والبيزنطيين في عهد الخليفة

« هارون الوائق »

وكتورة / سامة حامر - مربي تاريخ العصر الروماني

مقدمة :

تميزت العلاقات السياسية بين المسلمين والبيزنطيين في عهد الخليفة هارون الوائق بشئ من الركود السياسي والمهادنة نظراً للظروف السيئة التي أملت بالدولتين فقد كانت تلك الفترة هي فترة أقول نجم العباسيين وبداية زوال عصرهم الذهبي المتألق حيث هيمن الترك على مقاليد الحكم والسياسة واضطر الخليفة إلى الرضوخ إلى واقع الأمر، وممالة الترك نظراً للدور العسكري الهام الذي قام به هؤلاء ضد كثير من خصوم العباسيين وقد ترتب على هذا اضمحلال سطوة الخليفة وضعف شخصيته في مواجهة الكثير من الاضطرابات التي أملت بدولته. ورغم أن موضوع هذه الدراسة هو البحث في العلاقات السياسية بين المسلمين والبيزنطيين إلا أننا رأينا ضرورة إلقاء مزيد من الضوء على الأحوال الداخلية في الدولتين مما كان له أثر مباشر على نهج سياسة الهدنة والمصالحة بين الطرفين. فقد عانى الخليفة هارون الوائق من ثورة بعض الأقاليم ومن تسلط كتاب الدواوين في دولته حيث هيمنوا على اقتصاد البلاد واستأثروا به، كما اصطدم هارون بعدد كبير من الأئمة بسبب موقفه المتشدد في قضية خلق القرآن مما أدى إلى انشغاله بكل هذه الأعباء وأهمل عبء الجهاد ضد البيزنطيين في الوقت

الذى قام فيه الأغالبة ومسلمو كريت بدور رائع متميز فى جهادهم ضد الروم.

أما الدولة البيزنطية فلم تكن أحسن حالاً من المسلمين فقد توفى الإمبراطور ثيوفيل وخلفه فى الحكم ابنه ميخائيل الثالث بوصاية أمه الإمبراطورة ثيودورا. وحين تولى ميخائيل III كان شخصية عابثة ماجنة ترك أمور السياسة والحكم للأوصياء وانغمس فى اللذات والمجون حتى لقب بالسكير وانعكس هذا بوضوح على دولته وتلاقت أهداف الدولتين فى عهد الصلح وتبادل الأسرى. ولم تكن تلك السياسة من صالح نولة العباسيين إذ ازدادت الأطماع الخارجية فيها وبدأ زوال طريق التآلق والنجاح لتشهد تلك الخلافة العظيمة انقسام وانفصال عدد كبير من الدول عنها بالإضافة إلى تزايد خطورة المتربصتين بها، ومنهم أشرس غزاة العصور الوسطى وهم المغول على الأخضر واليابس وقضوا على عالم الفكر والسياسة والثقافة والاقتصاد بل على ينبوع الحضارة الإسلامية بوجه عام.

هذا وقد اختتمنا البحث ببعض الجوانب الشخصية للخليفة هارون الواثق. والأحداث التى أعقبت وفاته.

هارون الواثق

هو أبو جعفر هارون بن محمد بن المعتصم بن الرشيد الملقب بالواثق، قيل أنه ولد في ١٠ شعبان ٢٠٩هـ / ٦ ديسمبر ٨٢٤م وأمه أم ولد يقال لها قراطيس وهي زومية الأصل.. عهد له أبوه المعتصم بولاية عهده، واعتمد عليه كثيراً في تسيير أمور الخلافة بسبب انشغاله في بناء مدينة سامراء.

وحول ميلاد الواثق اختلفت المصادر فمنهم من يقول أن ميلاده كان عام ٢٠٩هـ، ومنهم من أشار إلى أنه ولد عام ١٩٦هـ / ٨١١م ورأى آخر يقول أنه ولد عام ١٨٦هـ / ٨٠٢م^(١)، رغم أن ابن دقماق قد أشار إلى أن ميلاده كان عام ٢٠٩هـ / ٨٢٤م إلا أنه عاد ونقض روايته الأولى حول تاريخ ميلاده حيث قال إنه توفي في عام ٢٣٢هـ / ٨٤٦م وله من العمر ستة وثلاثون عاماً فلو كانت وفاته عن هذا العمر فسيكون ميلاده عام ١٩٦هـ / ٨١١م وليس ٢٠٩هـ / ٨٢٤م كما ذكر ابن دقماق وهذا ما أكده السعودي والطبري وابن الأثير.. وقد اتفق الجميع حول عام توليه الحكم أنه كان في

(١) أم ولد لقب يطلق على الجارية التي تلد ولدًا والمزيد انظر الطبري : (ت ٣١٠هـ) : أبي جعفر بن محمد بن جرير الطبري : تاريخ النول والملوك، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٨ : ج ٥، ص ٢٧٣؛ ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) أبي الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، الضبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧، ج ٦، ص ٧٣؛ السعودي (ت ٣٤٦هـ) : أبي الحسن علي بن الحسين علي السعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، ج ٤، ص ٦٥؛ ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ) : إبراهيم بن محمد أيدمر العلاني : الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق د/ عاشو، ص ١١٥، السيوطي (ت ٩١١هـ) : جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، بيروت، ١٩٨٦، الطبعة الأولى، ص ٢٨٥.

٢٢٧هـ. وله من العمر واحد وثلاثون عاماً وتسعة أشهر (١).

تولى الواثق الحكم بعد وفاة والده المعتصم فى ١٨ ربيع أول سنة ٢٢٧هـ / ٧ نوفمبر سنة ٨٤١م. وقيل أن ولايته كانت فى ٨ ربيع أول عام ٢٢٧هـ، وهناك روايات تشير إلى أن ولايته كانت فى ١٩ ربيع أول ٢٢٧هـ. ٨ نوفمبر ٨٤١ (٢) عموماً لقد أجمعت المصادر على أن وفاة أبوه المعتصم كانت فى ١٨ ربيع أول ٢٢٧هـ / ٧ نوفمبر ٨٤١م. وأنه تولى الحكم فى نفس يوم وفاة أبيه باعتباره ولى عهده (٣). وقد توفيت أمه قراطيس بمدينة الحيرة (٤) فى نفس عام ولايته فى ٤ ذى القعدة عام ٢٢٧هـ / ١٦ اغسطس ٨٤١م. ودفنت فى الكوفة فى دار داود عيسى.

تميز عهد هارون بزيادة نفوذ العنصر التركى فى مجريات الأحداث فقد عين أشناس وهو أحد القادة الأتراك سلطاناً (٥). وألبسه وشاحين

(١) للمزيد انظر الطبرى : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٩٠-٢٩١؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٩٢؛ المسعودى : المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٥-٦٦.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٢، السيوطى : المصدر السابق، ص ٢٨٥.

(٣) (ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٢٧، ابن كثير (ت ٧٧٤) : البداية والنهاية الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٧، ج ١٠، ص ٧٤٢، المسعودى : المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٥، محمد الخضرى بك : تاريخ الأمم الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٤٤٨.

(٤) الحيرة : مدينة تقع على تخوم العراق كان يسكنها شعب المناذرة خلفاء الفرس قبل الإسلام وقامت فيها حروب كثيرة من أشهرها موقعة ذى قار التى انتصر فيها المسلمون على الفرس، قيل إنها تبعد عن الكوفة ثلاثة أميال وللمزيد انظر ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦هـ) : شهاب الدين أبى عبد الله، معجم البلدان، تحقيق فريد الجندى، بيروت : ١٩٩٠م، ج ٢، ص ٣٧٦-٣٨٠.

(٥) كان الواثق يطلق على أشناس زمرة الأتراك والسلطان وللمزيد انظر عبد المنعم ماجد : العصر العباسى الأول القاهرة، ١٩٧٠، ص ٤٣٠.

مرصعين بالجواهر وأبقاه في ولاية المغرب... وهو بهذا يُعد أول حاكم عباسي يمنح هذا اللقب العظيم لقائد تركي... ولم يصبح الأتراك يحملون ألقاباً عادية مثل الحاجب أو الوزير بل تعدوها إلى السلطنة (١).

وفي هذا دلالة واضحة على فقدان هارون الواثق لكثير من نفوذه وسلطانه لحساب الترك إكراما لأمه وسيراً على نهج أبيه المعتصم (٢). بل يلقي كثير من المؤرخين المسؤولية كاملة على المعتصم والواثق في تغلغل العنصر التركي وتأثيره على مجريات السياسة العباسية، حيث عهد الواثق للقائد التركي إيتاخ بولاية خراسان والسند وِدجلة (٣). وهذا سيراً على سنة أبيه المعتصم رغم أنه عاد وعاتب إيتاخ على استبداده بالسلطة (٤). وقد تزايد عدد الأتراك في عهده وبصورة ملموسة واعتمد عليهم الواثق في شتى مهام دولته وتدرجياً فقد الواثق مكانته وسلطانه... حقيقة كان ظهور الأتراك على مسرح الأحداث له نور فعال في إنهاء الخصومة بين العرب والفرس وإحداث التقارب بين العباسيين والعلويين الذين أظهروا ضيقاً من

(١) للمزيد عن هذه الألقاب وغيرها انظر القلقشندي (ت ٨٢١هـ) أحمد بن علي القلقشندي : صبح الأعمش في صناعة الإنشاء تحقيق د/ يوسف طويل، ١٤ جزء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ج٩، ص ٢٧٠.

(٢) الطبري : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٧٣، إبراهيم ايوب (دكتور) : التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٨٩، ص ٩٧.

(٣) الطبري : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٧٤، ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٩، ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٤٥، السيوطي : المصدر السابق، ص ٢٨٥.

(٤) محمد جمال الدين سرور (دكتور) : تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق ، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٥-٢٦ وأيضا ماجد : المرجع السابق، ص ٤٢٠.

هذا النفوذ التركي المتزايد فأدى ذلك فى النهاية إلى إضعاف الخلافة وتقليل قدرتها فى الهيمنة على مقاليد الحكم، وانسلاخ الدول والأقاليم عن سلطتها فظهرت الدولة الصفارية والسلمانية والغزنوية وغيرها فى المشرق وال طولونية والأخشيدية ثم الفاطمية فى مصر والحمدانية فى الشام، فى الوقت الذى لم يقف طموح الأتراك عند حد بل امتد إلى الرغبة فى الهيمنة على مقاليد السلطة والحكم والجيش مبررين ذلك برغبتهم فى التصدى للروم والقضاء على الفتن والاضطرابات الداخلية فى عهد الواثق.

وفى الحقيقة عانى الواثق كثيراً من رد فعل العرب والفرس وتزايد كرههم للترك خاصة بعد أن حرّمهم الواثق من كثير من الأرزاق والعطايا، وفضل عليهم الترك الأمر الذى أوصل كل فئة من هؤلاء إلى أن تعمل لحسابها فى الخفاء معاً زاد الاضطرابات الداخلية وزاد من استبداد الترك بالسلطة لدرجة أنهم وقفوا موقفاً عدائياً من الواثق ولم يبايعوا ابنه محمد بولاية العهد، بل عهدوا لأخيه المتوكل.

عموماً فهذه السياسة القائمة على تفضيل الترك أضعفت الخلافة وهددت عروية الدولة إذ لم يحرص الترك على تعلم العربية أو إتقانها متما فعل الفرس من قبل^(١). وإنما حرصوا على لغتهم وحافظوا عليها.

ولكن بنظرة محايدة على مسرح الأحداث نجد أن الواثق كان مجبراً على الوفاء للترك بسبب ما قدموه له ولوالده من قبل من خدمات فى المجال

(١) للمزيد انظر : محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق، ص ٢٧، أحمد الشامى (دكتور) الدولة

الإسلامية فى العصر العباسى الأول، ص ٦٦٩ - ١٧٠.

العسكري خاصة يوم عموره^(١) فقد كان لهم دور بارز في موقعة عموره وحفظت لنا المصادر أسما . عظيمة ومميزة مثل أنشاس والأفشين وإيتاخ^(٢) فقد عاونوا المعتصم وأخلصوا له في تلك الحملة ناهيك عن الدور الذي لعبه الأفشين في القضاء على ثورة بابك الخرمي على عهد المأمون مما زاد من رصيدهم عند الواثق. وزاد أيضاً في تطلعاتهم للاستئثار بالسلطة حتى لو تطلب هذا عقد تحالفات مع بعض المتمردين والخارجين على الدولة العباسية ولعل هذا هو الذي دعا المعتصم للتخلص نهائياً من الإفشين وعلى الرغم من هذا لم ييأس الترك بل حرصوا على الالتفاف حول الواثق ولم يبرحوا مكان إقامته في سامراء ليظل كل منهم على مقربة من مركز السلطة ولينالوا منزلة طيبة من نفس هذا الخليفة الجديد . بل وصل بهم الأمر إلى أنهم كانوا يرسلون نواباً عنهم من الولاة إلى الأقاليم والولايات حتى لا يبرحوا العاصمة لما يمكن أن يترتب على ذلك من ضعف سلطانهم أواخر العصر العباسي الأول^(٣). وتزايدت سطوتهم في الدولة حتى أعطوا لأنفسهم مما لأهل العقد والحل خاصة في مسألة تعيين ولي عهد الواثق فقد رفضوا ابنه محمد ورشحوا أخاه المتوكل وذلك لأن أم المتوكل كانت تركية من خوارزم وليست عربية^(٤).

(١) عمورية : مدينة مقدسة لدى الروم بذلوا جهداً كبيراً في الدفاع عنها ضد مسلمين فهي مسقط

رأس الأسرة الحاكمة آنذاك وللمزيد انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق، ج ٤، ص ١٧٨

(٢) ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٤٥

(٣) الطبري : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٧٣ - ٢٧٥. أحمد إبراهيم الشريف وآخر العالم الإسلامي

في العصر العباسي، الطبعة الخامسة، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٢١٨

(٤) السعدي - المصدر السابق، ج ٤، ص ٨٥، ابن كثير المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٥٧ - ٧٥٨.

ماجد المرجع السابق، ص ٤٢

الاضطرابات الداخلية وثورة بعض الأقاليم فى عهد هارون الواثق:

شهد عهد الواثق كثيراً من الاضطرابات والثورات أهمها ثورة عرب الجزيرة خاصة قبيلة بنى سليم من قيس عيلان^(١). الذين أحدثوا ذعرا وقلقا فى الطريق إلى المدينة المنورة حيث تسلطوا على الأسواق والأسعار وقتلوا الكثير من العرب عام ٢٣٠هـ / ٨٤٤م^(٢) مما أحدث كثيراً من الذعر والفوضى فى منطقة الحجاز وعلى الرغم من أن الواثق أرسل جيشا لقمعهم إلا أنه لم يتمكن من ردهم تماما إذ استباحوا القرى وتحولوا إلى قطاع طرق وعبثوا بالأمن فى ربوع البلاد، فاضطر الواثق إلى إرسال جيش آخر بقيادة بغا الكبير (أبو موسى) وقائده طردوش فقاتل بنى سليم وأسر منهم عدداً كبيراً وأجبرهم على مصالحته بعد أن حبس الخطيرين منهم على الدولة وعاد بباقي الأسرى إلى المدينة وحبسهم عام ٢٣٠هـ^(٣).

كما حاربت جيوش الواثق قبيلة بنى مرة الذين تغلبوا على فدك وفى البداية فشل الواثق فى قمعهم لأنهم تفرقوا فى الصحارى وشكلوا خطراً جسيماً على دولته إلا أنه تمكن فى النهاية من هزيمتهم كما تمكن من قمع قبيلة بنى نمير وذلك سنة ٣٣٢هـ / ٨٤٦م^(٤). الذين كانوا قد عاثوا فى منطقة الحجاز فساداً كبيراً فكلف الواثق بغا الكبير بالسير لهم جهة اليمامة^(٥)....

(١) ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٤٧؛ ماجد : المرجع السابق، ص ٤٢٢.

(٢) الطبرى : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٧٨.

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٨١.

(٤) ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٥٥؛ الطبرى : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٨.

(٥) اليمامة : مأخوذة من اسم بلاتر يقال له اليمام، وهى مدينة بينها وبين البحرين ١٠ أيام، وهى معنودة من نجد وقاعدتها حجر وكان اسمها قديماً «جوا» فسميت باليمامة ومنها منازل طسم وجديس وللعزير عنها : انظر ياقوت الحموى : المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٠٥.

وقتل عددا كبيرا وأسر الآخرين ثم التقى مع بنى تميم، وكان جيشه يبلغ ألف فارس بينما كانوا هم فى ثلاثة آلاف فارس فجرت بينهم حروب كثيرة انتصر فى النهاية جيش هارون الواثق وتمكن من إعادة الأمن والاستقرار إلى ربوع البلاد. ويقول ابن كثير أن بُغا عاد إلى بغداد ومعه أعيان روعسانهم فى القيد والأسر وكان معظمهم من أكابر تميم وسليم وكلاب ومرة وثعلبة وطى^(١).

ولعل أخطر المشاكل التى واجهت الواثق كانت من جهة الأردن وكان سببها أبو حرب اليمانى المعروف بالمبرقع^(٢). فقد كان مصدر قلق منذ عهد أبيه المعتصم وأحدث فتنة شديدة فى البلاد... وقد فشل المعتصم فى استئصال شأفته رغم أنه أرسل إليه جيشاً قوياً ضم مائة ألف مقاتل.. وقد تردد جيش المعتصم فى مهاجمته لكثرة عدد أتباعه^(٣). ولما تولى الواثق وجه إليه جيشاً آخر بقيادة رجاء بن أيوب ومعه عدد من القواد الترك فأخمد فتنة المبرقع وقتل ما لا يقل عن ألف وخمسمائة رجل من طائفة القيسية، الذين زاد الصراع معهم واصطدامهم مع اليمانية وتمكن من التصدى لهم فى مرج

(١) الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٨؛ عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ٤٢٢.

(٢) سُمى بهذا الاسم لأنه كان دائم التلم بهذا البرقع ليخفى وجهه عن السلطان بعد أن أتهم بقتل أحد الحراس بجهة الأردن وتمكن من إشعال نار الفتنة فى كل منطقة فلسطين وأرهم الناس أنه السفيانى المنتظر للانتقام لبني أمية من العباسيين وللمزيد انظر ابن الاثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٧٣؛ ابن كثير المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٤٠؛ حسن إبراهيم حسن : التاريخ السياسى والثقافى والاجتماعى، بيروت، ١٩٦٤، ج٢، ص ٧٨.

(٣) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٤٠.

راهط ثم اتجه ابن أيوب بعد ذلك للمبرقع وتمكن من أسره ونقله إلى سامراء حيث قتل هناك فاستقرت الأوضاع فى الشام ثم قام الواثق بتعيين إيتاج والياً عليه ولكنه فضل الإقامة فى سامراء مثل غيره من الولاة الترك^(١).

هارون الواثق وموقفه من كتاب الدواوين

حين تولى الواثق حكم البلاد كانت ذكرى نكبة البرامكة^(٢) ماثلة أمام عينيه، وكان استبدادهم بالأمور المالية للبلاد ليس خافياً على أحد ... وقد تجدد فى عهده الكثير من الأقاويل حول إسراف كتاب الدواوين واستبدادهم بالأمور المالية وخاصة بعد أن رأى زيادة ثروتهم وأملاكهم فجأة وشعر بخيانتهم وإسرافهم فى أمور الدولة.. فصادر أملاكهم ويقال إنه ضربهم ألف سوط ويقال أنه سجنهم وعذبهم ليعلنوا عن مصدر ثروتهم، ويحكى عن هارون الواثق أنه جلس ذات ليلة مع بعض سماره وسئل عن نكبة البرمكة فذكر أن جده هارون الرشيد كان قد أعجب بجارية فساوم سيدها فقال له أمير المؤمنين «... أنى أبيعها لك بمائة ألف دينار فاشترها منه ثم أمر

(١) فازيليف : العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة، مراجعة د. فؤاد حسين على ، بطرسبرج ١٩٠٠، ص ١٧٥. ابن الأثير : المصدر لسابق، ج ٦، ص ٧٣، ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٤٨، ماجد : المرجع السابق، ص ٤٣٤.

(٢) أثيرت العديد من الأقاويل حول نكبة البرامكة ومنها قصة العباسة أخت هارون الرشيد، واستبدادهم بالمال والسلطة، وقبل أنهم كانوا يميلون لعادات مجوسية مثل إشعال البخور والنار فى المساجد إلى آخر الروايات، وحول أسباب نكبتهم بالتفصيل فى عهد هارون الرشيد انظر ابن كثير : المصدر لسابق، ج ١٠، ص ٣٦٣، ٦٤٤ - ٦٤٥، على إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامى العام، القاهرة، ١٩٧١، ص ٥٦٦.

سحى ابن خالد بن برمك أن يرسل له المال فاعتل نأها لست عنده فتعحر الرشيد هل حقا أن بيت مالى حال فأرسل الرشيد إليه يؤنبه ويقول «أما فى بيت مالى مائة ألف دينار» ثم بدأ يتتبع أموال بيت ماله فوجد أن البرامكة قد استولوا عليه فأخذ يترقب تصرفاتهم ومصادر أملاكهم وبدأ التنكيل بهم^(١)، هذا سبب بالإضافة إلى العديد من الأسباب الأخرى عن نكبة البرامكة ... وأعجب الواثق بسياسة جده وقرر أن يسير على نهجه وترقب عماله ووجد أن أموالهم لا تتفق مع قيمة الأرزاق التى يحصلون عليها فاعتبرهم خونة ويطش بهم^(٢). هم داخل الدواوين وكان هارون الواثق يردد دائما مقولة حفظها عن جده فى هذه المناسبة «إنما العاجز من لا يستبد»^(٣).

هارون الواثق وموقفه من مسألة خلق القرآن

لقد شارك الواثق أباه فى ميوله المذهبية وأرائه الفلسفية وتشدد فى نشر آرائه الخاصة بمسألة خلق القرآن مما أثار عليه مشاعر أهل بغداد الذين سخطوا عليه وتأمروا على قتله، فقد أمر الواثق أمير البصرة أن يمتحن الأئمة والمؤذنين فى مسألة خلق القرآن وهذا هو نهج أبيه من قبل ولكن أدى ذلك إلى إثارة مشاعر الناس ضده وكان أكثرهم ثورة أحمد بن نصر الخزاعى^(٤). وهو من أهل الحديث وكان قائماً بالأمر بالمعروف والنهى

(١) ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٤٨

(٢) ابن الأثير المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٩ محمد الخضرى المرجع السابق ص ٢٥٢

(٣) ابن الأثير نفس المصدر ص ٨٠ ابن كثير المصدر السابق، ص ٧٤٨

(٤) للمريد عن شخصية أحمد بن نصر الخزاعى انظر ابن كثير المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٥

عن المنكر وساعده فى دعوته رجلان من أهل بغداد هما أبو هارون السراح وكان يدعو أهل الجانب الشرقى والآخر طالب ويدعو أهل الجانب الغربى^(١). وقد أمر الواثق بإلقاء القبض على أحمد بن نصر الخزاعى فأحضر مقيداً وسأله عن القرآن فقال له كلام الله وكان أحمد قد استقتل وتطيب^(٢). فقال له الواثق : أمخلوق هو ؟ قال هو كلام الله. فقال له : وماذا تقول فى ربك أترأه يوم القيامة؟ فقال: يا أمير المؤمنين قد جاءت الأخبار عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : «تروى ربكم يوم القيامة كما تروى القمر لا تضامون فى رؤيته» فنحن على الخبر.

وقال تعالى «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة»^(٣). فقال الواثق ويحك أيرى كما يرى المحدود الجسم ؟ ويحويه مكان ؟ ويحصره الناظر؟ إنما كفرت برب صفته ما تقولون فيه. وكان الواثق متشدرأ فى رأيه بخلق القرآن بدون دليل ولا برهان ولا سنة ولا قرآن^(٤) وفى نفس الوقت الذى أصر فيه الخزاعى على أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق فى أشياء كثيرة^(٥). وقد أخذ الواثق رأى الفقهاء فى أمر أحمد الخزاعى فقالوا: له

(١) ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٥٠، السيوطى : المصدر السابق، ص ٢٨٥، الطبرى : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٣١.

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٨٧.

(٣) السيوطى : المصدر السابق، ص ٢٨٥، ابن الاثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٨٦، الطبرى : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٣١.

(٤) ابن رساهل (ت ٧٧٨هـ) عباس بن مجاهد بن على بن يوسف بن عمر : نزمة العيون فى تاريخ الطوائف القرون، مخطوط بمكتبة جامعة الإسكندرية - رقم ١١٢٩ لوحة ٩ ب، بن الاثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٨٦.

(٥) ابن كثير : المصدر السابق، ص ٧٥٠، عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ٤٢٤

حلال الضرب فدعا بالسيف وقال إذا قمت إليه فلا يقومن أحد معى فأبنى
أحتسب خطاى إلى هذا الكافر الذى يعبد ربا غير الذى نعبده ولا نعرفه
بالصفة التى وصفه بها ثم أمر بالنطع^(١). فأجلس عليه وهو مقيد وضرب
عنقه وسقط صريعا- ثم حمل بعد أن فصلت رأسه عن عنقه وحمل إلى
الخطيرة التى صلب فيها بابك الحزمى^(٢). ثم حملت رأسه إلى بغداد وظل
أياماً فى الجانب الشرقى وأياماً فى الجانب الغربى وعنده الحرس ليلا
ونهاراً وقد كتب على رأسه هذه رأس الكافر المشرك أحمد بن نصر
الخرامى ممن قتل على يد عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين
بعد أن أقام عليه حجة خلق القرآن ونفى التشبيه.

ويقال أنه عرض عليه التوبة، والرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة
والتصريح^(٣). والجدير بالذكر أن مسألة خلق القرآن هذه كانت سبباً فى

(١) النطع هو عبارة عن جلد ممتزقة بعظم الخلفاء فيها أثر كالتخزير وقيل النطاع هو يوم من أيام
العرب . . . وربما المقصود به الخشبة التى توضع أسفل المشتقة فى وصفنا الحالى والمزيد انظر
ابن منظور (ت ٧١١هـ) جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب دار المعارف بدون
تاريخ، ج ٦، ص ٤٤٦٠ - ٤٤٦١.

(٢) بابك الحزمى هو مؤسس الحركة الحزمية وهى حركة زندقة والحاد تنادى بتناسخ الأرواح من
الحيوان إلى الإنسان وقد ظهرت فى عهد الأمين وله آراء خطيرة فى إشاعة اللذات وشيوع النساء
والمزيد انظر عبد الرحمن العمرو (دكتور): أثر الفرس السياسى ، الطبعة الأولى ١٩٧٨، ص
٢٧٠ - ٢٩٨.

(٣) يقال أن رأس الخرامى ظلت معلقة سنتين إلى أن تول المتوكل فأنزلها ودفنها والمزيد انظر ابن
كثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٥٢، السيوطى: المصدر السابق، ص ٢٨٦، ابن الأثير:
المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٢١، الطبرى: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٢، ماجد: المرجع
السابق، ص ٤٢٩.

معاوية الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي المشهور وذلك في عهد الخليفة المعتصم بالله لدرجة أنه ضرب بالسوط لرأيه في هذه المسألة ورغم أن المعتصم قد خفف من موقفه تجاه هذه القضية إلا أن الوثائق أعاد للأذهان تعنت بني العباس مع غير القائلين بخلق القرآن مما زاد من كراهية الناس له خاصة بعد أن تتبع كل أنصار الخزاعي وسجنهم وقطع عنهم الأرزاق. وفي هذا الصدد يضيف أبو الفداء «أنه في عهد الوثائق لم يترك أحد حتى أخذ بمحنة خلق القرآن، فهرب الناس وملئت السجون، وحتى الذين افتداهم الوثائق من أسارى المسلمين عند الروم امتحنوا في ذلك. ومن قال بعدم خلق القرآن يترك للروم دون افتداء وامتدت المحنة إلى كافة الولايات بما فيها مصر حيث اضطهد الفقهاء فيها من أصحاب مالك والشافعي وكان يطوف رجل الشوارع وهو ينادى بخلق القرآن^(١).

كانت هذه لمحة سريعة عن المشاكل التي واجهت الدولة العباسية في عهد هارون الوثائق والتي شغلته فترة من الزمن مما كان له أثر مباشر على العلاقات الخارجية مع بيزنطة.

(١) أبو الفداء ، ص ٢٨؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٣٠٢؛ الطبري: المصدر السابق، ص ٢٨٤؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ص ٢٣٦.

السياسة الخارجية لهارون الواثق

علاقته بالدولة البيزنطية

تميزت العلاقات السياسية بين الواثق والروم بالهدوء النسبي فلم تشر المصادر إلى أى غزوات قام بها بنو العباس ضد الدولة البيزنطية حيث يرجع المؤرخون أن هذه هى الفترة التى انتهت فيها فروسية بنى لعباس أو خفت حدتها، بل أن البعض يقول إن الواثق كان يميل إلى الروم باعتبار أن أمه قراطيس كانت رومية الأصل مما جعله يعزف عن معادتهم إكراماً لها، فى حين يرى البعض الآخر أن هذا يرجع إلى انشغال الخلافة العباسية فى مشاكلها الداخلية وما نхим عليها من جمود وتقاعس خاصة فى آسيا الصغرى. فى الوقت الذى لم تكن فيه الإمبراطورية البيزنطية أحسن حالاً من المسلمين فقد مات الإمبراطور ثيوفيل ٢٢٧هـ / ٨٤٢م^(١). وورث الحكم ابنه الوحيد ميخائيل الثالث وكان طفلاً فى الثالثة من عمره وترك الوصاية لأمه الإمبراطورة الشابة ثيودورا^(٢)، التى أعلنت سياسة دينية مناقضة تماماً

Zonarae, J, Opera Omina, H.C.D. in partrologiac Craecae, Tomus, (١) 135, Belgium pp. 52-54.

انظر أيضا : فازيليف : العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة، مراجعة/ فؤاد حسنين على طبعة دار الفكر العربى، بطرسبرج ١٩٠٠، ص ١٦٩.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٢؛ ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٤٢؛ انظر أيضا : أومان : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د/ مصطفى طه بدر، دار الفكر العربى، ١٩٥٦؛ ص ١٦٥، والجدير بالذكر أنه فيما يتعلق باسم ثيودورا فقد اختلفت المصادر العربية فى اسمها فأحيانا تذكر ثيودورا أو ثوزة.

لسياسة زوجها. فقد قضت على الاضطهاد الدينى وأعادت كل المنفيين من أماكن نفيهم وعزلت البطريرك يوحنا النحوى محطم الأصنام فى عهد ثيوفيل ولم يمض على وفاة ثيوفيل شهرٌ واحدٌ حتى عادت الأيقونات إلى حوائط جميع كنائس القسطنطينية. مما فتح الباب من جديد لحرب دينية لا تنقطع داخل البلاد^(١). ولكن هذا لا يمنع من وجود صور عديدة للاحتكاك العسكرى بين الروم والمسلمين^(٢). حيث قام الروم بمهاجمة جزيرة كريت أقرب المعازل الإسلامية من حدود بيزنطة^(٣). ففى مارس ٨٤٢م / ٢٢٨هـ قاد الوزير البيزنطى ثيوكتستوس حملة بحرية ضخمة لمهاجمة كريت وقد أراد ثيوكتستوس من ورائها تحقيق مجد سياسى وعسكرى لنفسه أولاً. حيث تقدم فعلاً نحو كريت ولم يلقى مقاومة تذكر^(٤). ونزل على شواطئ المدينة واحتل جزءاً من الجزيرة وأقام فيها إدارة بيزنطية تابعة له. وكادت أن تنجح خطته فى ابتلاع كريت لولا قيام أهل الجزيرة بخدعة لانقاذ مدينتهم إذ أشاعوا

(١) أومان : المرجع السابق، ص ١٦٥ - ١٦٦ : محمود سعيد عمران (دكتور) معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٨١، ص ١٢١ : جوزيف نسيم يوسف (دكتور) : تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦، ص ١٤٢ : أسد رستم : حرب فى الكمناس ، بيروت، ١٩٥٨، ص ٥٨ - ٥٩ : أحمد الشامى : المرجع السابق، ص ١٧٠ : ماجد : المرجع السابق، ص ٤٢٤.

Grenier, P. L'empire Byzantin, Paris, 1904, P. 162. (٢)

Baynes and Moss Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization, London, 1926, p. 20. (٣)

Monachus, G. Monachus, Vita Recentiorum Imperatorum, In theophanes cont. C. S.H. B, (-1828), p. 814; C also : Jenkins, R, Byzantium, the imperial Centuries, London, 1966, p. 157. (٤)

داخل كريت ووسط الجيش البيزنطى أن الإمبراطورة ثيودورا قد جعلت من أحد منافسى ثيوكتستوس شريكاً لها فى الحكم وأنها أبعده متعمدة ليخلو لها الجو فأسرع ثيوكتستوس بالعودة إلى القسطنطينية^(١). مما أعطى الفرصة للمسلمين من تدمير أسطوله تماماً رغم انشغال أسطول كريت بحروبه فى بحر إيجه ضد السواحل والجزر البيزنطية^(٢).

وفى الحقيقة فقد وقع عبء الجهاد ضد البيزنطيين على نوبة الأغلبية^(٣)، حيث تولى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب مهمة الجهاد وجهز الجيوش والسرايا التى لم تتوقف طيلة عهده الذى امتد تسع عشرة سنة. ففى عهده فتحت مدينة هامة بجوار بلرم^(٤) وهى مدينة مسينة أو مسيني^(٥)

Symeon Magistre Historia, Chronographia, In Theophanes Cont, (١) C.S.H.B, ed. 1. Bekker, Bonn. 1838, pp. 1-484; Theophanes Cont, op. cit. p. 203; Monachus, op. Cit. pp.. 814-815; cf. Also, Fin Lay, History of the Byzantine Empire, London, 1906, p. 166; Bury, History of Eastern Roman Empire, London, 1912, p. 292; Foord, The Byzantine Empire, London, 1911, p. 231.

(٢) إبراهيم العنوي (دكتور): الأساطيل العربية فى البحر المتوسط، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٠٢؛ فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٢.

(٣) مؤسس هذه النوبة هو إبراهيم بن الأغلب على عهد الخليفة هارون الرشيد حيث أرسله إلى تونس لقمع ثورات البربر والأدارسة فاستولى عليها وأزال ملك العباسيين إلا اسم الخلافة وللمزيد انظر حسن إبراهيم: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٩٦.

(٤) بلرم: هى عظم مدن جزيرة صقلية فى بحر المغرب لها سور شاهق وبها العديد من الشوارع الضخمة الواسعة وبها عشرة مساجد وللمزيد انظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٧٢.

(٥) مسينة: بلدة تقع على ساحل صقلية مما يلى الروم مقابل ريو وهى بلد فى القسطنطينية والواقف فى مسنى يرى ريو، قيل أن طولها ٣٩ درجة وعرضها ٢٨ وللمزيد انظر ياقوت الحموي: ج ٤، ص ٤٤٦ انظر كذلك ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٤، ص ٤٣١ دار الكتاب اللبناني

١٩٦٨

Measana عام ٢٢٨هـ / ٨٤٣م وهى مدينة هامة بها ميناء يقع على مضيق مسينى فى رأس الجزيرة ويحيط بها الجبال جهة الغرب، وبداية غزو مسنى كان بحملة قام بها الفضل بن جعفر الهمدانى وكانت حملته برية وبحرية بهدف الاستيلاء على مسينى. وفعلاً نزل فى مرسى مسينى وغنم غنائم كثيرة^(١). كما استأمن أهل نابل^(٢) وصاروا معه ولكنه لم يتمكن من أخذ مدينة نابل^(٣) لقوتها، وفى الحقيقة تشير بعض المصادر إلى أن أهل نابل هم الذين سعوا لعقد تحالف مع الفضل الهمدانى، ورغم عدم وضوح الدوافع لهذا الحلف^(٤) إلا أن الروايات العربية تشير إلى أن نجاح قوات الأغالبة فى دخول حدود مسينا هدد جنوب إيطاليا بأكمله وأجبر نابلى على طلب الصلح حيث كانت تعاني من الصرعات العنيفة مع جيرانها مما كان له أثر خطير فى طلب التحالف مع المسلمين بعد تخلصها من الخطر اللمباردى .. فى حين يذكر ابن الأثير أنهم اضطروا لعقد الصلح حيث كلف الفضل مجموعة كبيرة من رجاله استداروا خلف جبل مطل على نابلى وصعدوا إليه ونزلوا إلى المدينة وأهل البلد مشغولون بقتال جعفر فلما رأوا ذلك فتحوا أبواب المدينة

(١) ابن الأثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٧٥؛ انظر أيضا.

(٢) Ostogosky, G, History of the Byzantine State, translated by Joan Hussery, Oxford, 1956, p. 195. Bury, op. cit., p. 313;

(٣) كانت مدينة نابلى شديدة الحصانة وهى تابعة لإيطاليا ويقوم فيها الشريف، ومنها كان يحكم صقلية فإذا وصل الشريف إليها يفادها نوقها إلى صقلية وللمزيد عنها انظر : قسطنطين السابع

إدارة الإمبراطورية البيزنطية، عرض وتحليل د/ محمود سعيد عمران، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٠١.

Bury. Op. Cit., P. 313;

(٤)

انظر أيضا : ابراهيم العديوى : المرجع السابق، ص ٧٩ - ٨٠.

وعقدوا الصلح قهراً وليس زغبة منهم كما أشارت بعض الروايات^(١).

بعد ذلك تقدم الفضل وحاصر مدينة مسكان واستولى عليها، كما هاجم الأغالبة مدينة شرة^(٢). فقاتله أهلها قتالاً شديداً، ولكن صمد المسلمون وهزموا الروم فيها وقتل منهم ما يزيد عن ١٠,٠٠٠ رجل واستشهد من المسلمين ثلاثة ويقول ابن الأثير أنها كانت مدينة قوية لم يكن بصقلية مثلها^(٣).

وقد ظل الفضل بن جعفر يحكم خططه لإسقاط مسيني ففي عام ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م وصلتته أنباء أن أهل تلك المدينة تحالفوا مع بطريك صقلية لينصرهم على المسلمين فقال لهم : سأتى إليكم بجيوش والعلامة لوصولي أن توقد النار ثلاث ليال على الجبل الفلاني^(٤). فإذا وصلت تكاتفت جيوشكم معي ونزلنا على المسلمين بغتة، فلما علم الفضل أرسل من أوقد النار ثلاث ليال، وأعد خطة عسكرية لملاقاة أهل المدينة ليونيتتى^(٥). ومسينى الذين خرجوا للقتال فلم يجدوا سوى المسلمين وانتظروا وصول البطريرك واشتدت

(١) ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٥؛ انظر ايضا.

Ostrogosky, Op. Cit., P. 157-158.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٦٥.

Bury, Op. Cit., P. 157-158

(٣)

وانظر ابن خلدون : العبر ، ج ٤، ص ٤٣١.

(٤) فازيليف : العرب والروم، ص ١٨١.

(٥) مدينة هامة تقع في القسم الشرقي من الجزيرة بين قسطنيا وسرقوسة للمزيد انظر فازيليف :

العرب والروم، ص ١٨١.

الحرب وهزم أهل مسيني فرقة صغيرة من المسلمين وكانت خطة الفضل استدراك باقى جيوش مسيني، وخرج كل أهالى المدينة فطوقوا من قبل المسلمين وأعمل السيف فيهم. فطلبوا الأمان على أنفسهم. وأجابهم المسلمون إلى ذلك وسلموا المدينة^(١). وقد أقام المسلمون فترة بمدينة تسمى طارنت من أرض انكبردة^(٢). وسكنوها. وكانت هذه ضربة قاصمة للإمبراطورة ثيوهورا وسياستها الفاشلة ناهيك عن مؤامرات وديسائس القصر الإمبراطورى.

كما هاجم أسطول الأغالبة مدينة قلورية^(٣). جنوب إيطاليا^(٤). وتمكنوا من مهاجمة مراكز عديدة فيها واستولوا على كثير من المدن والحصون منها

Bury, Op. Cit., PP. 306-307; CF. Also; Bay nes and Moss, Op. Cit., (١) PP. 18-19.

وأبضا لويس ارشيبالد : القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة محمد شفيق غبريال، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢١٤؛ أحمد رمضان (نكتور) : تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط فى العصر الوسيط، مطبعة هيئة الآثار، ص ٢٢ وللمزيد عن مراحل الصراع بين أهل مسيني والفضل بن جعفر أنظر ابن الاثير : ج ٦، ص ٧٥-٧٦.

(٢) انكبردة : بلا واسعة للفرنج ما بين الأندلس والقسطنطينية على طرف بحر الخليج بمحاذاة جبل التلال وتمر على محاذاة ساحل المغرب شرقاً إلى أن تتصل ببلاد قلورية وللمزيد انظر ابن الاثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٦، فازيليف : العرب ولروم : ص ١٨٠؛ إبراهيم العدوى : الإمبراطورية البيزنطية والنولة الإسلامية، ص ٩١. وانظر ابن خلدون : العبر المجلد الرابع ص ٤٣٦.

(٣) قلورية : جزيرة تقع شرقى صقلية نخلة فى البحر على شكل مستطيل من أشهر مدنها قسانة وقر وثية وستانة وبها جنسيات مختلفة وللمزيد عنها انظر ياقوت : المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٤٦.

Bury, Op. Cit., P. 316.

(٤)

بارى (١) Barium . وكانوا قد أغاروا عليها من قبل وأعطت لهم القدرة على التحكم فى مدخل بحر الأدرياتيك (٢) . أو ما يسميه العرب بخليج البنادقة نسبة إلى مدينة البندقية . وقد حاول البنادقة إيقاف هذا الزحف فاستعانوا بالروم (٣) . وأغاروا على سفن الأغالبة ودارت معركة حاسمة انتصر فيها الجيش العربي على جيش الروم والبنادقة وهلك الكثيرون .

ورغم أنه قد سبق وسلم له أهل مدينة نابلى (٤) . إلا أنهم سرعان ما أعلنوا التمرد على المسلمين بسبب استخدام سواحلهم كقواعد لأسطولهم الأمر الذى دفع بنابلى إلى التحالف مع باقى المدن الإيطالية المجاورة وكونوا أسطولا ضخما لمقاومة خطر المسلمين (٥) . فلم يطل خضوع أهل نابلى للمسلمين بسبب ذلك الحلف العسكرى الضخم الذى أجبرهم على التخلي عن مواقعهم بسواحل المدينة .

وفى عام ٨٤٦م / ٢٣١هـ أغار الأغالبة على مدينة روم التى كانت تتمتع بحصانة شديدة (٦) . وكان يحيط بها عشرة أبواب ضخمة من الرخام

(١) Bury, Op. Cit., PP. 313- 316.

(٢) أشار فازيليف إلى تردى أحوال الإمبراطورية وقشل ثيودورا فى إنقاذ الموقف ضد عرب صقلية " معا دفعهم إلى الصلح والمهادنة مع المسلمين انظر فازيليف : العرب والروم، ص ١٣٥ . وواصل الأغالبة اغاراتهم على قنورية وما حولها انظر ابن خلدون : العبر : المجلد الرابع ص ٤٣٣ .

(٣) أشار بيورى إلى عقد أحلاف عسكرية بين البنادقة والروم منذ أمد بعيد وللمزيد انظر : Bury, Op. Cit., PP. 325-326.

(٤) ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٨٨ .

(٥) فليب حتى : العرب تاريخ موجز، بيروت، ١٩٤٦، ص ٢٠٢ : فازيليف : العرب والروم، ص ١٨٥ .

(٦) Foord, Op. Cit., P. 231.

الأبيض وتعلوها الأعمدة ويكثر فيها الكنائس^(١). وأشهرها كنيسة طولها ألف ذراع فى خمسمائة وعرضها مائتى ذراع ويرجح أنها الفاتيكان مركز البابوية ويوجد بها قبر الحواريين بطرس San Peter ويولس San Pools ويقال أنهما مدفونان فى أجران من الرخام الأبيض بحيث يراهم الناس^(٢). وتشير المصادر إلى أن الأغالبية فى غزوهم لروما اتجهوا أولا نحو سردينيا^(٣). وجعلوا منها قاعدة عسكرية دائمة لهم. ومنها اتجهوا شمالاً بحذاء الساحل الإيطالى واكتسحوا فى طريقهم عددا من الموانى الهامة ودخل أسطولهم نهر التيبير الذى يشق روما ويسمى أيضا نهر رومية ويطلق عليه فى بعض المصادر نهر قسطنطين^(٤). وتشير بعض الروايات إلى أن العرب دخلوا روما نفسها وأحرقوا المدينة وتهبوا ذخائرها^(٥). وعبثوا بقبر القديس بطرس بولس وقبور البابوات وأثاروا الذعر فى المدينة^(٦). ويشار أيضا إلى أن العرب قاموا بحملة أخرى أكثر إعداداً وتنظيماً ونزلوا فى

(١) Bury, Op. Cit., P.314.

(٢) Bury, Op. Cit., P.314.

انظر : أيضا فازليف : العرب والروم، ص ١٨٥.

(٣) سردينيا جزيرة كبيرة فى بحر المغرب أكبر من صقلية وأقريطش غزاها المسلمون وملكوها سنة

٩٢هـ واستفاد منها الأغالبية فى غزواتهم وهى الآن بيد الفرنج وقيل أن سردينيا مدينة أخرى داخل

صقلية وللمزيد انظر ياقوت : المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٦.

(٤) Decline, 6, pp. 42-45.

وأيضا فازليف : العرب والروم ، ص ١٨٥.

(٥) Foord, Op. Cit., P. 231.

(٦) Bury, Op. Cit., P.315.

ميناء أوستيا Ostia قرب روما^(١). حيث التقى أسطولهم بأسطول الروم. ويقال أن جنوا وبيزا والبندقية وقفت إلى جانب البابا هذه المرة. حيث كان هذا مقدمة لأحلاف عسكرية عقدتها هذه المدن مع الإمبراطورية أيضا^(٢). وقد كان من سوء حظ المسلمين أن هبت عاصفة قوية دمرت بعض مراكب العرب فهزموا واضطروا إلى الانسحاب^(٣). وقد بالغ أهل روما في الاحتفال بانتصارهم على العرب في هذه الموقعة لدرجة أنهم قاموا بعمل احتفال ضخم للقديسين علقوا فيه أسلحة العرب حول المذبح^(٤). وصورت هذه الأحداق في لوحة معلقة في كنيسة الفاتيكان بريشة الفنان الإيطالي رفايللو ورغم هذا فلم يأمن الروم خطورة العرب واستعدادهم لمعاودة الكرة رغم الهزيمة فتشير المصادر إلى أن البابا يوحنا الثامن John VIII^(٥). أراد أن يبعد العرب نهائياً عن روما فاضطر إلى الالتزام بدفع جزية لهم لمدة عامين^(٦).

(١) عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى؛ بيروت، ١٩٦٦، ص ١٠٢.
 (٢) Pstrogorsky, Op. Cit., P. 196; Bury, Op. Cit., PP. 315; Foord, op. Cit., P. 231.

انظر أيضا فانزليف : العرب والروم، ص ١٨٥.

(٣) ارشيبالد لويس : القوى البحرية، ص ٢١٦؛ فليب حتى : العرب تاريخ موجز، ص ٢٠٢.

Bury, Op. Cit., PP.315-316. (٤)

انظر أيضا فانزليف : العرب والروم، ص ١٨٥.

Jenkins, Op. Cit., P, p. 174. (٥)

(٦) فليب حتى : العرب تاريخ موجز ، ص ٢٠٢ انظر أيضا :

Ency de l'IsI ltd, t4, p . 415.

فى نفس الوقت الذى حاولت فيه بيزنطة استرداد جزيرة صقلية فأرسلت حملة عسكرية ضخمة أسندت قيادتها إلى ثيوكتستوس^(١). الذى لم يثبت جدارته من قبل مما أثار تساؤلات عدة فقد سبق وأخفق فى حملته الأولى ضد كريت عام ٨٤٣م / ٢٢٨هـ^(٢). فما الداعى لتكليفه بهذه الحملة.

فمن الغريب أن ثيودورا وضعت ثقتها الكبيرة فيه من جديد دون غيره من رجال البلاط نو الكفاءة الأعلى فى سجلهم العسكرى أمثال مانويل الذى كان له شهرة عسكرية عظيمة على عهد الإمبراطور ثيوفيل، وقد وافق ثيوكتستوس على الفور على أمل تحقيق مجد شخصى عجز عن تحقيقه فى حملته الأولى^(٣). وليحقق رغبة ثيودورا فى انتزاع أى مكاسب عسكرية على حساب المسلمين^(٤).

عموماً لقد استعدت ثودورا لتجهيز جيوش ثيوكتستوس فى الوقت الذى كان فيه المسلمين قد كثفوا من غاراتهم على أراضي بيزنطة حتى

(١) Symeon, Op. Cit., P. 654.

وأيضاً فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٢.

(٢) Jenkins, Op. Cit., P. 157.

وانظر أيضاً ابن خلدون : البر المجلد الرابع ص ٤٢٢ - ٤٢٣.

(٣) Ostrogorsky, op. cit. , p. 157.

انظر أيضاً فازيليف : العرب والروم ، ص ١٧٢.

(٤) Symeon, op. cit., p. 654.

وأيضاً فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٢.

(٥) Symeon, op. cit., p. 654, cf also, Ostrogorsky, op. cit., p. 196.

وأيضاً فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٢.

وصلوا بالقرب من موروبوتامون Mouropotomon عند مدخل البسفور^(٥). وهناك أدركهم ثيوكتستوس بقواته واشتبك معهم وتمكنت الجيوش الإسلامية بقيادة عمر بن عبد الله الأقطع من إنزال هزيمة ساحقة بثيوكتستوس^(١). فهلك كثير من جند الروم وفر البعض الآخر ومنهم من انضم إلى جيوش المسلمين^(٢).

وهكذا فشلت تلك المحاولة البيزنطية للتأثر من المسلمين نتيجة ضرباتهم المتلاحقة للجبهة الشرقية للإمبراطورية^(٣). وقد حاول بعض المؤرخين محو عار تلك الهزيمة عن ثيوكتستوس وإلقاء اللوم على عاتق برداس شقيق ثيودورا^(٤). رغم أن برداس لم يشترك في حملة بيزنطة في موروبوتامون.. وقد حدد المؤرخون ذلك الاتهام في أن برداس هو الذي حرّض جند البيزنطيين على الفرار للمعسكر الإسلامي. ومما أكد هذا الاتهام أن برداس سارع بمغادرة العاصمة بعد توجيه اللوم إليه دون أن يحاول تبرئة نفسه أمام شقيقته ثيودورا^(٥). بل الأخطر من ذلك أن أهم معاوني برداس ويدعى

(١) Brehier, (L) *vei et Mort de Byzance*, Paris, 1969, p. 113, Foord, op. cit., p. 232; Ostrogorsky, op. cit., p. 196.

Symeon, op. cit., p. 654.

(٢)

وأيضاً فازيليف : ص ١٧٤.

Jenkins, op. cit., p. 159.

(٣)

(٤) أومان : المرجع السابق، ص ١٦٦.

Symeon, op. cit., p. 654, cf also, Ostrogorsky, op. cit., p. 196, Jenkins, op. cit., p. 159.

وأيضاً : فازيليف : العرب والروم ، ص ١٧٤.

ثيوفانس الفرعاني Theophanes Farghana كانت له اليد الطولى فى المؤامرة التى أطاحت بثيوكتستوس بعد ذلك^(١).

ومما يؤيد ذلك أن ثيوكتستوس كانت له عدة محاولات من قبل للإطاحة ببرداس والحد من سلطانه بالقصر خاصة حين أصبح زميلاً لشقيقته ثيوبورا فى الوصاية^(٢) على العرش وفى هذا الصدد ليس من المستبعد أن يكون لبرداس نفس دور الخديعة الذى لعبه ضد ثيوكتستوس أثناء وجوده فى جزيرة كريت عام ٨٤٣م^(٣) / ٢٢٨هـ... فقد أسرع ثيوكتستوس بالعودة إلى العاصمة خوفاً من مكائد برداس له^(٤)؛ كأن الخديعة والدسيسة كانت سجالاً بين برداس وثيوكتستوس منذ أمد بعيد.

عموماً فقد استمرت المناوشات بين المسلمين والروم، وقد شعرت ثيوبورا بعدم قدرتها على مواجهة المحاولات الإسلامية الدائمة للنيل من حدود بيزنطة خاصة وأن الإمبراطور ميخائيل الثالث حتى بعد بلوغه سن الرشد لم يكن الشخصية القوية التى يمكن أن تنهض بالقوة الدفاعية لبيزنطة فقد ظل غارقاً فى اللهو والسكر والمجون ولولا أن الدولة كانت

(١) Diaconi Leonis, Historia in Patrologiae Graecae, Tomus, 117, Belgium, P. 840.

C.M.H., Vol. IV. I., p. 108. (٢)

وأيضاً أوهان : المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٣) فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٤.

Bury, Op. Cit., p. 238; Jenkins, op. cit., p. 155, Ostrogorsky, op. cit., (٤) p. 196.

منظمة تنظيمياً دقيقاً لتحتطمت حكومة الإمبراطورة أمام العريضة المبالغ فيها من قبل ميخائيل الثالث الذي بدا وقد فقد توازنه وأسلم زمام الأمور إلى صديقه بازيل المقدوني خاصة بعد أن تخلص من خاله برداس بأن ذبحه لكي يحكم منفرداً ولكن دون جدوى^(١).

ويلاحظ أن البيزنطيين قد اعترفوا أمام أنفسهم بعدم قدرتهم على مواجهة المسلمين سواء على الجبهة الشرقية مع الخلافة العباسية أو مع مسلمي كريت وصقلية باعتبارهم الجانب الأضعف حيث لقوا هزائم متوالية على أيدي المسلمين فتيقنوا أنهم بحاجة إلى تدعيم دفاعاتهم في هذه المناطق. ورغم هذا فقد استمرت حالة التوتر قائمة بين الجانبين وتمثلت في الغارات المتبادلة صيفاً وشتاءً وراح ضحيتها كثير من المحاربين مما دعا إلى تهدئة الأحوال وإزالة التوتر والتقاط الأنفاس لكسب جولات عسكرية أخرى. في الوقت الذي كان فيه الخليفة هارون الواثق يؤثر الهدوء والعزلة ولم يكن راضياً عن سياسة الأغلبية ضد بيزنطة وليس له سلطة فعلية عليهم لوقف غاراتهم. فانغمس هارون في مشاكله الداخلية^(٢) وأسبابها العديدة التي استعرضنا آثارها في بداية هذا البحث. ويبدو أن الواثق قد قرر وقف أى نشاط عسكري من جهته تجاه بيزنطة لدرجة أنه عزل واليه على الثغور والعواصم وهو أحمد بن سعيد الباهلي^(٣) بسبب خروجه في شاتية ضد

Jenkins, op. cit., p. 157.

(١)

وأيضاً أومان : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٦٦ .

(٢) ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٤٥؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٨١؛ ماجد : المرجع السابق، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

Ostrogorsky, op. cit., p. 196; Jenkins, op. cit., pp. 158-159. (٣)

وأيضاً عبد العزيز سالم (دكتور) : العصر العباسي الأول ، الإسكندرية، ١٣٩٨، ص ٢٢٩ .

الروم وتصدى له أحد بطارقة الروم ورغم أن عدداً من سفنه قد غرق في نهر البذندون^(١) بسبب العواصف الشديدة والتلوج، إلا أنه غنم غنائم كثيرة منهم وعاد بباقي جيشه فرد عليه الواثق بعزله وعين مكانه نصر بن حمزة الخزاعي^(٢).

ويرجع عدد من المؤرخين أن الواثق لم تكن تنقصه الكفاءة العسكرية ليخوض الجهاد ضد البيزنطيين ولكن أصبح شغله الشاغل ذلك النفوذ التركي المتزايد داخل الخلافة^(٣). فلم يشأ أن يزيد الطين بلة بعبء جديد من الصراع الخارجى وصرف النظر نهائياً عن معاداة الروم وقرر فتح باب المفاوضات وتبادل الأسرى.

وفى هذا الصدد يشير بعض المؤرخين المحدثين أن ثيودورا هى التى عرضت عقد هدنة وصلاح بين الطرفين يتم فيه تبادل الأسرى^(٤). فى حين يرى البعض الآخر كما سبق القول أن الظروف التى أملت بالخلافة هى التى أجبرت الواثق على طلب الهدنة. فى حين يرى فريق ثالث أن طول الصرع

(١) البذندون : بفتحيتين ومكون النون والدال مهملة وواو ساكنة هى قرية بينها وبين طرسوس يوم واحد مات فيها الخليفة المأمون ونقل ودفن فى طرسوس وللمزيد انظر ياقوت : المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢٠.

(٢) الشامى : المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٣) Bury, op. cit., pp. 315 - 316.

Bury, op. cit., p. 274; Ostrogorsky, op. cit., p. 196; Foord, op. cit., (٤) p232

وأيضا فازيليف : العرب والروم : ص ١٧٥.

وتزايد عدد الضحايا والأسرى أوجد رغبة قوية لدى الطرفين على وقف دمار الحرب على الحدود^(١). ناهيك عن الالتزامات المالية الضخمة التي كان يدفعها الطرفان من جراء هذه الحروب^(٢). فى حين يرى الكثيرون أن أضرار الحروب كانت أوضح على بيزنطة منها على الجانب الإسلامى بل يرى البعض أن مشاكل الوثائق لم تكن من الخطورة والقوة ولعل ذلك يفسر ويؤكد أن بيزنطة هى التى كانت بادئة بطلب الهدنة وتبادل الأسرى.

أما عملية تبادل الأسرى فقد كانت تسير ضمن خطة وقواعد محكمة تبدأ بسفارات يشترك فيها ولاة الثغور والمناطق الأكثر عرضة للحرب فإذا نجحت تلك المفاوضات كانت تتم عملية الفداء وتبادل الأسرى^(٣). وفى الحقيقة فإن عملية تبادل الأسرى لم تكن جديدة العهد على تاريخ الخلافة العباسية فقد سبق ذلك أكثر من فداء للأسرى ولكن جميعها كانت فى شكل هدنة مؤقتة سرعان ما تشتعل بعدها الحرب أما الفداء فى عهد الوثائق فلم يعقبه حرب بعده^(٤). عموماً لقد بدأت مراسم تبادل الأسرى فى ١٠ محرم

(١) Finlay, op. cit., p. 154.

وكذلك إبراهيم العنوي : الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص ٦٧.

(٢) Vasiliev, A, History of the Byzantine Empire, Medfson, 1986, pp.273-274

(٣) Bury, op. cit., pp.234-275; Ostrogorsky, op. cit., p.196.

(٤) تشير المصادر إلى أن أول فداء للأسرى كان عام ١٢٩هـ على عهد الخليفة أبو جعفر المنصور ولكن أعقب كل فداء حروب عديدة بين الطرفين ما عدا عهد هارون الوثائق للمزيد انظر الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٥ ماجد : العصر العباسى الأول، ص ٤٢٢.

عام ٢٣١هـ / ١٦ سبتمبر ٨٤٥م^(١). وقد ذكرت المصادر الإسلامية تفاصيل هذا الفداء وشروطه. فقد أورد اليعقوبي والطبري أن البيزنطيين كانوا هم البادئين بإرسال سفارة إلى هارون الواثق بتكليف من الإمبراطور ميخائيل III وطلب إحلال السلام محل الحرب والتفاوض بشأن تبادل الأسرى وقد رحب الواثق على الفور^(٢). فقد أرسل سفيره أحمد بن قحطبة^(٣). إلى الإمبراطور البيزنطي لمعرفة مدى استعداد بيزنطة لتنفيذ هذا الفداء، والتعرف على العدد الحقيقي للأسرى وقد اتضح له أن عددهم حوالي ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة وصبي وتم الاتفاق بين الجانبين على إجراء عملية الفداء عند نهر اللامس^(٤). حيث تجهز رجل من عند هارون وهو حفيد مسلم بن قتيبة وكان يسمى (الواثق أحمد) ومعه أحد الأتراك وهو الحضي خاقان الخادم^(٥). في حين أشرف على عملية الفداء من الجانب البيزنطي

(١) ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٤٥؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٨٨؛ محمود سعيد عمران : المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ٢٠، ص ٢٠٧؛ الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٣) الطبري : المصدر السابق، ج ٩، ص ١٤٢. أيضا.

Bury, op. cit., p. 275.

(٤) نهر اللامس : هي قرية على شط بحر الروم من ناحية نهر طرسوس تم عليه الفداء وكان الروم يقدمون في البحر فيكونون في سفنهم ويقع الفداء. انظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٩؛ فازليف : العرب والروم، ص ١٧٧، انظر أيضا :

Ostrogorsky, Op. cit., p. 196.

(٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٠٧؛ الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، ص ٢٨٦؛ المسعودي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٥.

قائدان هما أنقاس ولستوس^(١). ويقال أن عدد المسلمين كان من الضخامة بحيث قلق المبعوثان البيزنطيان فطلبوا عقد هدنة مع خاقان الخادم مدتها أربعين يوماً بصورة تكفي لإرجاع الأسرى إلى بلادهم^(٢). وفي ١٦ سبتمبر ٨٤٥م/ ١٠ محرم ٢٣١هـ. وهو يوم عاشوراء كما ذكر الطبري وابن الأثير^(٣). بدأت عملية الغداء بإظهار حسن النوايا حيث أطلق البيزنطيون سراح عبد الله الطرطوسي وكان من أشرف طرطوس وأسرته البيزنطيون في إحدى غزواته منذ ثلاثين عاماً على أراضيهم فكانت عودته سليماً ومعزواً إلى الخليفة هارون لها رد فعل طيب على الجانبين كما تبع ذلك إطلاق سراح عد كبير من وجوه الأسرى المسلمين^(٤). وقد انفرد الطبري بذكر هذه الرواية بإسهاب من بين جملة المصادر ولم تذكر التفاصيل في أي من المصادر البيزنطية. ويشير فازيليف أن المسلمين وقفوا على الجانب الشرقي للنهر بينما وقف البيزنطيون على الجانب الغربي وفجأة ظهرت خلافات جادة بين الطرفين^(٥). حيث رفض الروم قداء العجزة من النساء والرجال أو قداء الأطفال^(٦). وكاد أن يفشل الاتفاق واستمر الخلاف أياماً إلى أن اتفقوا على

(١) Ostrogorsky, op. cit., p. 196; Bury, op. cit., p. 276.

انظر أيضاً فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٦.

(٢) فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٧؛ الطبري المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٦.

(٣) الطبري : نفسه ، ص ٢٨٧؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٨٨؛ ابن كثير : المصدر

السابق، ج ١٠، ص ٧٥٤ - ٧٥٥؛ عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٤) فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٧.

(٥) Ostrogorsky, op. cit., p. 196.

(٦) فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٧؛ وأيضاً

Bury, op. cit., p. 279' Finlay, op. cit., p. 154.

فداء رجل برجل^(١). أو نفس بنفس دون النظر للسنة^(٢). وقد كان عدد أسرى المسلمين ضخماً لدرجة أن الواثق أمر بشراء من يباع في بغداد والرقعة من العبيد الروم فلم يكفى ذلك، فلم يرى الخليفة إلا أن يخرج كل من عنده من نساء الروم في بلاطه الخاص حتى تتقارب أعداد أسراه مع أسرى الروم^(٣). وإلى أن اكتمل العدد وتساوى بين الطرفين يشير الطبرى إلى أن الواثق أمر بتكوين جماعة من يحيى بن آدم الكرخى البغدادى وجعفر بن الحذاء وطالب ابن داود لامتحان الناس فى مسألة خلق القرآن فمن نفى قدم القرآن ورؤية الله فى الآخرة افتدى على الفور ويوزع عليهم أموال فى الحال وقيل أنه كان يمنح كل أسير عند الفداء ديناراً، أما من لا يرفض نفى رؤية الله وقدم القرآن كان يتترك للروم ولا يفدى^(٤).

وقد ذكر المسعودى^(٥) فى مروج الذهب أنهم كانوا كثيرين. حيث بلغ عدد من افتدى من المسلمين أربعة آلاف وخمسمائة شخص^(٦). وكانت

(١) فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٧.

(٢) الطبرى : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٧.

(٣) فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٧.

(٤) الطبرى : المصدر السابق، ج ٥، ص ٨٨؛ فازيليف : العرب والروم؛ ابن الاثير : المصدر السابق،

ج ٦، ص ٨٨ - ٨٩.

(٥) المسعودى : مروج الذهب، ج ٤، ص ٦٥، ابن الاثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٨٨ : انظر

ايضا :

Bury, *op. cit.*, p. 275' p. 275' cf. also : Ostrogorsky, *op. cit.*, p. 196.

(٦) ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٥٤ - ٧٥٥؛ عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص ٢٢٧

الطريقة المتبعة في الفداء أن يقف الطرفان كما سبق القول على ضفتي نهر اللامس ويجعلوا عليه قنطرتين واحدة للروم والأخرى للمسلمين فيطلق الروم أسير ممن عندهم فيطلق المسلمون في نفس الوقت أسيراً رومياً فإذا اقترب المسلم من المسلمين صاح الله أكبر فيرد عليه باقى المسلمين بالتكبير كذلك، ويشير فازيليف أن الروم فعلوا مثلهم في التكبير وقد أكد ابن الاثير ذلك^(١).

وقد تميز هذا الفداء أيضاً بإطلاق الروم سراح شخصية هامة جداً في التاريخ الإسلامى وهو مسلم بن أبى مسلم الجرمى وكان على دراية كبيرة بالروم وبلادهم وله مصنفات في أخبار ملوكهم وذى المراتب العليا منهم كما كان على دراية بمسالك وطرق الروم وأفضل أوقات الغزو والغارات عليهم ومن جاورهم من الممالك من برغان والبرغز والصقالية^(٢) وغيرهم، حتى يقال أن العالم الجغرافى ابن خرداذبة استمد الكثير من المعلومات الجغرافية عن آسيا الصغرى من مسلم الجرمى وصارت معلوماته أساساً لكل التاليف الجغرافية في العصور الوسطى^(٣).

وقد أشارت المصادر العربية أن كثيرين من الأسرى كانوا من أهل الذمة حيث لم يفرق هارون الواثق بين مسلم وغير مسلم وأفتدى الجميع ولعل

(١) ابن الاثير : المصدر السابق، ج٦، ص٨٨؛ فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٨.

(٢) الصقالية : هم عدد من الأمم منهم النصارى ومنهم المجوس، يعبدون الشمس ولهم بحر يجرى من المشرق إلى المغرب يتصل ببحر البلغار ولهم أنهار كثيرة وعلى قدر كبير من التحضر والمهارة في كثير من الفنون وللمزيد عنهم أنظر : المسعودى (ت ٢٤٥) أبو الحسن على بن الحسين : أخبار الزمان / الطبعة الخامسة، بيروت ، ١٩٨٢، ص ٩٢ - ٩٣.

(٣) إبراهيم العلوى : المرجع السابق، ص ٩٨.

هذا ينفي الكثير من الاتهامات التي وجهت للوائق بشأن عدم فدائه لمن لا يقول بخلق القرآن من المسلمين فإذا كان هذا موقفه المتسامح من أهل الذمة وكيف حرص على فدائهم فكيف يكون هذا هو موقفه مع جماعة المسلمين مهما كان حجم الخلاف في الرأي معهم أعتقد أنها مبالغة من خصوم هارون الواثق لإدانتته الشديدة في قضية خلق القرآن وخلافه مع أحمد بن نصر الخزاعي وأتباعه ومؤيديه وقد كانوا كثيرين في بغداد وسامراء^(١).

أما عن مدة الفداء فقد اختلفت المصادر العربية في ذلك فيذكر الطبري أنها كانت سبعة أيام في حين يذكر المسعودي أنها كانت عشرة أيام^(٢).

ولو حاولنا تقييم عملية الفداء نجد أن لها بعداً حضارياً عظيماً إذ أوجدت فرصة للاحتكاك الحضاري بين المسلمين والبيزنطيين وأوجدت عملية تأثير وتائر بين كلا الجانبين، خاصة أن الأسرى لدى الطرفين كانت تتم عملية تجنيد دقيقة لمهاراتهم وقدراتهم ففي بيزنطة كانوا يوزعون على مختلف المصانع والحرف للاستفادة من خبراتهم وكانت لهم دار خاصة تسمى «دار البلاط» وتشتمل على غرف كبيرة يقيم فيها الأسرى، أما عظماء الأسرى فيقال إنها كانت لهم دار خاصة بالقرب من قصر الإمبراطور

(١) أنكر ابن كثير ما تردد حول موقف الواثق من الأسرى الذين رفضوا القول بخلق القرآن، وقال أن مسألة الفداء لم يكن لها علاقة بقضية خلق القرآن انظر ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٥٥. في حين أكدها اليعقوبي والطبري والسيوطي وابن الأثير والمزيد انظر اليعقوبي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٧؛ الطبري: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢١٨٨؛ المسعودي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٥-٦٦، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٨٧.

(٢) الطبري: المصدر السابق، نفس الصفحة، المسعودي: المصدر السابق، نفس الصفحة.

البيزنطى ليكونوا تحت رعايته وإشرافه بدليل أن عبد الله الطرسوس الذى عاد بعد ثلاثين عاما من الأسر عاد معززا مكرما متأثرا بكثير من عادات ومناسبات البيزنطيين^(١).. وتشير المصادر إلى أن هؤلاء الأسرى تمتعوا بمعاملة طيبة من قبل السلطات البيزنطية واحترمت عقيدتهم ولم يكرهوا على شرب الخمر أو أكل لحم الخنزير، كما لم يتعرضوا لأى نوع من التعذيب وزاولوا صنوفا من التجارة والحرف والألعاب المرحة، وكانت تقام مباريات فى سباق الخيل بين المسلمين والبيزنطيين وكان الروم يحضرون لمشاهدة هذه مباريات بل كان الإمبراطور يمنح الهدايا للمسلمين بعد فوزهم فى هذه المباريات، وبالمثل فقد لقي الأسرى البيزنطيون معاملة طيبة فى ديار الإسلام^(٢).. وأعد لهم فى القاهرة مكان خاص يسمى «المناخ» خاص بالأسرى الرجال فى حين يوزع الأطفال والنساء على الخليفة وكبار رجال الدولة^(٣).

وقد تطورت العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين على عهد هارون الواثق، فقد تم إرسال بعثات علمية للبحث والدراسة وتبادل الكتب والمعارف^(٤) مما كان له آثار حضارية متميزة لدى الطرفين.

(١) إبراهيم العنوى : الإمبراطورية البيزنطية، ص ٩٥؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى، ج ٢، ص ٤٦٨.

(٢) إبراهيم العنوى : المرجع السابق، ص ٩٦ - ٩٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٦؛ حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٦٨؛ محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٧١ - ١٧٢.

(٤) ابن خرداذية : المسالك والممالك، ص ١٠٦ - ١٠٧؛ المقدسى : أحسن التقاسيم، ١٥٢.

ويعد ورغم أن السياسة الخارجية لهارون الوثائق قد اتسمت بالاعتدال والسكينة مع البيزنطيين، إلا أن هذا لم يوقف استفحال خطر الضعف والتفكك في جسد الدولة العباسية فهذه كانت فترة أقول نجم العباسيين العظماء وزيادة تغلغل العنصر التركي وهيمنته على الوثائق وسلبه كل مقاليد السلطة والسيادة داخل وخارج دولته، بالإضافة إلى ما نتج عن مشكلة خلق القرآن من آثار سلبية خطيرة ضد الوثائق فلم يحرص على الجهاد ووقف معادياً لنشاط الأغلبة العسكرية ضد الروم. وفتح الباب للكثير من الفتن والصراعات، خاصة أنه لم يعين ولياً لعهد بسبب تدخل الأتراك في هذه القضية وحسمها لصالح أخيه المتوكل بدلاً من ابنه محمد وذلك لأن المتوكل كانت أمه تركية من خوارزم^(١). أقصد أنه تصافرت على عهد الوثائق كثير من العوامل التي أضعفت دولته وهزت كيانها، مما أعطى في النهاية صورة لا تنبض بالحياة والنشاط والاحتكاك العسكري واستعراض القوى الإسلامية ضد البيزنطيين وهذا ليس فقط على الصعيد الإسلامي بل أيضاً على المستوى البيزنطي فقد كان انغماس الإمبراطور ميخائيل الثالث في ملذاته وشهوته له أثر خطير على تقاعس وقصور سياسته الخارجية تجاه المسلمين، فلم ترغب بيزنطة في تفجير الحرب على الحدود الشرقية في آسيا الصغرى وكرنست جهودها ضد المسلمين في كريت وصقلية الذين باتوا يشكلون خطراً جسيماً على أمن بيزنطة في حوض البحر المتوسط. بالإضافة إلى تفتت الأوضاع الداخلية في بيزنطة وتزايد الصراع على السلطة بين

(١) وللمزيد انظر: ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٠٢ - ٢٠٨؛ ماجد: المرجع السابق، ص ٤٢٠؛ محمد الغزالي: المرجع السابق، ص ٢٤٩ - ٢٥٦.

برداس وثيوكستوس واضطراب شخصية ميخائيل الثالث وعيته ومجونه كل هذا ألقى بظلاله على العلاقات السياسية مع هارون الواثق وفرض الصلح والسلام على الطرفين.

وفاة الخليفة هارون الواثق

توفى هارون الواثق في ٢٢ من ذي الحجة ٢٣٢هـ / ٨٤٧م وسيطر الأتراك على أمور الدولة بصورة كاملة. وفي هذا الصدد يقول المسعودي «إن الواثق توفى وهو في مدينة سامراء، وقيل إنه مات وعمره ٣٦ عاماً وقيل ٢٢ عاماً واختلفوا في موته مثلما اختلفوا في ميلاده»^(١).

وفي وفاته قيل إنه كان يعالج من مرض الاستسقاء وعولج بالإقعاد في تنور ساخن فوجد لذلك راحة فأمرهم في اليوم التالي بالزيادة في درجة سخان التنور وجلس مدة أطول من ذي قبل فأغمى عليه وأخرج منه وصير في محفة وحضره الفضل بن إسحاق الهاشمي وعمر بن فرج. ولم يعلموا بموته حتى ضرب بوجهه المحفة فعلموا أنه مات وقيل حضر وفاته أحمد بن أبي داود يغمضه ويصلح من شأنه. ودفن في قبره في قصره بالهاروني^(٢). وكانت خلافته خمس سنين، وتسعة أشهر وخمسة أيام^(٣).

(١) اختلفت المصادر حول يوم وفاته ولكنها اتفقت في أنه في شهر ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ فقيل أنه مات يوم ٦ أو ١٠ أو ٢٢ من ذي الحج سنة ٢٣٢هـ وللمزيد أنظر المسعودي : المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٥؛ الطبري : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٩٠.

(٢) ابن كثير : المصدر السابق، ج ٦٠، ص ٧٥٣؛ الطبري : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٩٠ - ٢٩١؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٩٢.

(٣) للمزيد أنظر الطبري : ج ٥، ص ٢٩١.

وخلص القول فلم تكن الظروف التي أملت بعهد الواثق يمكن أن تقلل من شأنه كأخر الخلفاء العظام لعصر القوة العباسي، فقد عرف عنه أنه كان شديد الاهتمام بالعلم والعلماء، عقد كثيراً من مجالس العلم وناقش العديد من القضايا مع جماعة الفقهاء والمتكلمين .. كان محباً للشعر والأدب مطلعاً على آراء الفلاسفة والأدباء، وكثيراً ما سأل واستفسر عن علم الطب وحضر مجلسه يوحنا بن ماسويه وجبريل بن بختيشوع وغيرهم .. وكان كثير القراءة عن الكواكب والرياح ومواقع البلدان والظواهر الجغرافية التي تسببها البحار، شغوفاً بسيرة الإسكندر الأكبر، عطوفاً على رعيته، لم يقصر في حق العلويين بل بالغ في إكرامهم وتعهد برد أموالهم .. واهتم كثيراً بأحوال الحرمين الشريفين وأقام الكثير من المنشآت لراحة الحجيج^(١).

وبعد وفاته مباشرة يذكر الطبري أن حضر أحمد بن داود وإيتاخ ووصيف وعمر بن فرج الزيات وأنهم أصروا على تقليد ابنه محمداً أمور الدولة وكان غلاماً صغيراً فالبسوه دراعة سوداء وقلنسوة فإذا هو قصير فقال لهم وصيف «أما تتقون الله» تولون مثل هذا الخلافة وهو لا يجوز معه الصلاة. فتناظروا فيمن يولونه ... واستقر الرأي على أخيه جعفر ولم يكن قد لقب بالمتوكل فالبسوه الدراعة السوداء وعممه أحمد بن داود. وكان جعفر يقول أخاف أن يكون الواثق لم يمت فأروه إياه وهو مسجى. فقبل ويأبعوه في دار العامة ولقب بالمتوكل^(٢). ولعل هذا ما يؤكد أن الاتراك فعلاً لم يوافقوا على تعيين الواثق ابنه محمداً ولياً لعهد في حياته. والدليل التخبط والحيرة فيمن يلي أمر المسلمين يوم وفاة هارون الواثق. وكانت هذه هي السمة المميزة لعصر الضعف العباسي وتغلغل العنصر التركي في أمور السياسة والحكم.

(١) ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٥٣ - ٧٥٥؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٦، ص ٩٢.

(٢) الطبري : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٩٣.

الخاتمة

وبعد فقد حاولنا في تلك الدراسة السريعة حول أهم حقبة زمنية في تاريخ الخلافة العباسية في نهاية عصرها الأول، أن نستعرض كافة القضايا التي تركت بصماتها على السياسة الخارجية للخليفة هارون الواثق مع البيزنطيين وكانت تلك الأمور السبب الرئيسي في حالة المصالحة والهدوء وتبادل الأسرى مع بيزنطة. فقد استعرضنا تغلغل العنصر التركي في أمور السياسة والحكم، كما تناولنا قضية ثورة بعض الأقاليم ضد الواثق، وناقشنا موقف الواثق للمتشدد من كتاب الدواوين وقضية خلق القرآن، ثم انتقلنا للحديث عن أحوال بيزنطة على عهد الإمبراطور ميخائيل III وكيف كانت شخصيته العابثة الماجنة سببا في كثير من الاضطرابات الداخلية في دولته، وتقاعس سياسته الخارجية ضد المسلمين في الوقت الذي نشطت فيه دولة الأغابة ومسلمو كريت وتحملوا وحدهم عبء الجهاد ضد البيزنطيين.

كما استعرضنا رغبة الطرفين البيزنطي والإسلامي في عقد الصلح وتبادل الأسرى، واختتمنا البحث ببعض الجوانب الشخصية لحياة هارون الواثق حتى وفاته.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع الأجنبية :

Theophanes (Continuates), Historia, in, C. S. H.B, Bonn,1838.

Symeon Magistre Historia, Logothet, Chronographia, In Theophanes Cont, G.S.S.H.B, ed. 1. Bekker, Bonn. 1838, pp. 1-484;

Monachus, Vita, G. Monachus, Vita Recentiorum Imperatorum , In Theophanes Cont. C. S.H. B,(1828), p.761-924.

Leonis Diaconi, Historia, Patrologia Craecae tomus 117, Belgium.

Joannis Zonarae, opera omina, H.C.F. in Patrologiae Craecae, tomus, 135, Belgium.

Encyclopaedia of Islam,

C.M.H, Cambridge Medieval History. Vol. IV, Part 1,p.102.

Brehier, L., vei et Mort de Byzance, Paris, 1969.

Bury, H.B,History of Eastern Roman Empire,London, 1912.

Baynes and Moss, Byzantium an Introduction to East Roman Civilization, Oxford, 1969.

Gibbon, (Ed), The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, 7. vols.

Gregoire, H, Inscription Historiques Byzantines, Ancyre et les Arabs sous Michel L'ivrogne, In Byzation Revue, Tome IV, Paris, 1929, pp. 437-448.

Finlay, G., History of the Byzantine Empire, London, 1906.

Foord, E., The Byzantine Empire, London, 1911.

Jenkins, R, Byzantium, London, 1966.

Ostogosky, G, History of the Byzantine State, translated By J. Hussery, Oxford, 1950.

Vasiliev.A, History of the Byzantine Empire, Medison,1928

قائمة المصادر العربية

- ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧، ج ٦،
- ابن خردادبة : (ت. حوالي ٣٠٠هـ) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله : كتاب المسالك والممالك، ليدن، ١٨٩٩.
- ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ) : إبراهيم بن محمد أيدمر العلاني : الجواهر الثمين في سير الملوك والسلطين، تحقيق د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، بدون.
- ابن رسول (ت ٧٧٨هـ) عباس بن مجاهد بن علي بن يوسف بن عمر : نزهة العيون في تاريخ الطوائف القرون، مكتبة محافظة الإسكندرية - رقم ١١٢٩ تصوير شمس.
- ابن كثير (ت ٧٧٤) : الإمام الحافظ أبو الفداء بن كثير : البداية والنهاية الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٧، ج ١٠.
- أبو الفداء : (ت ٧٣٢هـ) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن علي : المختصر في أخبار البشر (ويعرف بتاريخ أبو الفدا) القاهرة، ١٣٢٥هـ.
- ابن منظور (ت ٧١١هـ) جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب دار المعارف، ج ٦.
- السيوطي (ت ٩١١هـ) : جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، بيروت، ١٩٨٦، الطبعة الأولى.
- الطبري : (ت ٣١٠هـ) : أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبري : تاريخ الدول والملوك، الطبعة الثانية، ٥ أجزاء ، بيروت ١٩٨٨.

القلقشندي (ت ٨٢٦هـ) أحمد بن علي القلقشندي : صبح الأعشى فى صناعة
الإنشا تحقيق د/ يوسف طويل، ١٤ جزء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧

اليقوبى : تاريخ اليقوبى، ج ٣٠، ص

المسعودى : (ت ٣٤٦هـ) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودى : مروج
الذهب ومعادن الجواهر، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ج ٤، بيروت، بدون
تاريخ.

المقدسى : (عاش فى القرن ٤هـ / ١٠م) : شمس الدين أبو عبد الله المعروف
بالبشارى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، لندن ، ١٩٠٦.

اليقوبى : (ت ٢٨٤هـ) : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح،
تاريخ اليقوبى، ٣ أجزاء، بغداد ، النجف، ١٣٥٨.

ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦هـ) : شهاب الدين أبى عبد الله، معجم البلدان، تحقيق
فريد الجندى، ٥ أجزاء ، بيروت : ١٩٩٠م.

المراجع العربية والمعربة

- إبراهيم العنوي (دكتور) : ١- الأساطيل العربية فى البحر المتوسط، القاهرة ، ١٩٥٧.
- ٢- الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، الفجالة، ١٩٥١.
- حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف : العالم الإسلامى فى العصر العباسى الأول، الطبعة الخامسة، القاهرة، بدون .
- أحمد رمضان (دكتور) : تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط فى العصر الوسيط، مطبعة هيئة الآثار.
- أحمد الشامى (دكتور) النولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول، ص ١٦٩ - ١٧٠.
- أحمد مختار العبادى (دكتور) : التاريخ العباسى والأندلسى، بيروت.
- أسد رستم : حرب فى الكنائس، بيروت ، ١٩٥٨.
- الشيخ محمد الخضرى بك : تاريخ الأمم الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠.
- أومان : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د/ مصطفى طه بدر، دار الفكر العربى، ١٩٥٦.
- حسن إبراهيم حسن : التاريخ السياسى والثقافى والاجتماعى، ٤ أجزاء، بيروت، ١٩٦٤.
- عيد العزيز سالم (دكتور) : العصر العباسى الأول ، الإسكندرية، ١٣٩٨.
- عيد الرحمن العمرو (دكتور) : أثر الفرس السياسى ، الطبعة الأولى ١٩٧٨.
- عيد المنعم ماجد : ١- العصر العباسى الأول، ٢ ج، القاهرة ١٩٧٣.
- ٢- العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، بيروت، ١٩٦١.

- على إبراهيم حسن (دكتور) : التاريخ الإسلامى العام، القاهرة، ١٩٧١.
- فازيليف : العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة، مراجعة/ فؤاد حسنين على
طبعة دار الفكر العربى، بطرسبرج، ١٩٠٠.
- قليب حتى : العرب تاريخ موجز، بيروت، ١٩٦٤.
- لويس ارشيبالد : القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة
أحمد محمد عيسى ، مراجعة محمد شفيق غبريال، القاهرة، ١٩٦٠.
- محمد جمال الدين سرور (دكتور) : تاريخ الحضارة الإسلامية فى المشرق ، القاهرة،
١٩٦٥.
- محمود سعيد عمران (دكتور):١- تاريخ الدولة البيزنطية، بيروت ، ١٩٨١.
- ٢- إدارة الامبراطورية البيزنطية للإمبراطورقسطنطين
السابع، عرض وتحليل د/ محمود سعيد عمران،
بيروت، ١٩٨٠.
- محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الطبعة الثانية،
١٩٩٧م.

مسينا

طبرمين

جبل النار

قطانية

كيفالو

بمرمة

قصريانة

لنتيني

سرقوسة

نوطس

مودكا

ميناو

دغوس

بثيرة

قصريانة

ليكاتا

جرجنت

بلرم

طرابنش

طرابنس

مازر

فتوحات المسلمين صقلية